شخصية الصوفي محمد الهواري في الكتابات الاستشراقية الفرنسية خلال الفترة الاستعمارية رصد بيبليوغرافي

The character of the Sufi Muhammad al-Hawari in the French Orientalist writings during the colonial period, a bibliographic observation

حنيفي هلايلي *

جامعة سيدي بلعباس (الجزائر)،

ملخص:

اهتمت المدونات الفرنسية منذ احتلال الجزائر سنة 1830 بالتراث العربي الإسلامي فظهرت كتابات مبكرة في حقل التحقيق والتحقيب والترجمة، أطرها مستعربون ومترجمون وخريجي مدرسة الآداب بالجزائر. ومن بين هذه الاهتمامات التأريخ للفكر الديني الصوفي الجزائري الذي ظهر على شكل أبحاث ميدانية وكتابات مونوغرافية، لذلك تطمح هذه الدراسة إلى إثارة الموضوع من جديد وبمنهجية تتوخى فهم ظاهرة الأدعية الساخطة، وتحاول تلمس مرجعيتها الفكرية والتاريخية بالعلاقة مع السياق التاريخي الذي أنتجها وهو فترة الوسيط بالجزائر ثم تتبع صداها في المدونات الفرنسية مقارنة بالمصادر المحلية. وتجدر الإشارة هنا أن غياب نصوص ومصادر داعمة لمثل هذه القضايا الشائكة تجعلنا نبحث عن نواة بيبليوغرافية حول شخصية الصوفي العالم محمد الهواري الذي خصصت له الكتابات الاستشرافية الفرنسية حيزا كبيرا من الاهتمام كرجل صوفي لعب أدوار بارزة في حاضرة المغرب الأوسط وهذا من خلال التعريف بشخصيته العرفانية الربانية ومناقبه وتآليفه الصوفية. لقد نشرت معظم أعمال المستعربين حول سيدي محمد الهواري في المدونات الفرنسية كالمجلة الإفريقية والمجلة الأسيوية أو كتابات مستقلة.

الكلمات المفتاحية: الهواري ؛ المدونات الفرنسية ؛ رصد بيبليوغرافي ؛ الكتابات الاستشرافية ، الاستعمار

*المؤلف المرسل

Abstract:

Since the occupation of Algeria in 1830, French blogs have been interested in Arab and Islamic heritage, and early writings in the fields of investigation, excavation and translation appeared, led by Arabists, translators, and graduates of the School of Arts in Algeria. Among these concerns is the history of the Algerian Sufi religious thought, which appeared in the form of field studies and monographic writings. Therefore, this study aspires to raise the topic again and with a methodology that seeks to understand the phenomenon of indignant supplications, and tries to touch its intellectual and historical reference in relation to the historical context that produced it, which is the mediator period in Algeria and then Tracking resonates in French blogs compared to local sources. It should be noted here that the absence of texts and sources supporting such thorny issues makes us search for a bibliographic nucleus about the personality of the mystic and scientist Muhammad al-Hawari, to whom the French forward-looking writings devoted a great deal of attention as a Sufi man who played prominent roles in the central metropolis of Morocco and this through the definition of his divine personality and his qualities And his Sufi compositions. Most of the work of the Arabists on Sidi Mohamed al-Hawari was published in French blogs such as the African magazine and the Asian magazine, or independent writings.

مقدمة:

اهتمت المدونات الفرنسية منذ احتلال الجزائر سنة 1830 بالتراث العربي الإسلامي فظهرت كتابات مبكرة في حقل التحقيق والتحقيب والترجمة، أطرها مستعربون ومترجمون وخريجي مدرسة الآداب بالجزائر. ومن بين هذه الاهتمامات التأريخ للفكر الديني الصوفي الجزائري الذي ظهر على شكل أبحاث ميدانية وكتابات مونوغرافية.[1]

لذلك تطمح هذه الدراسة إلى إثارة الموضوع من جديد وبمنهجية تتوخى فهم ظاهرة الأدعية الساخطة، وتحاول تلمس مرجعيتها الفكرية والتاريخية بالعلاقة مع السياق التاريخي الذي أنتجها وهو فترة

الوسيط بالجزائر ثم تتبع صداها في المدونات الفرنسية مقارنة بالمصادر المحلية. وتجدر الإشارة هنا أن غياب نصوص ومصادر داعمة لمثل هذه القضايا الشائكة تجعلنا نبحث عن نواة بيبليوغرافية حول شخصية الصوفي العالم محمد الهواري الذي خصصت له الكتابات الاستشرافية الفرنسية حيزا كبيرا من الاهتمام كرجل صوفي لعب أدوار بارزة في حاضرة المغرب الأوسط وهذا من خلال التعريف بشخصيته العرفانية الربانية ومناقبه وتآليفه الصوفية. لقد نشرت معظم أعمال المستعربين حول سيدي محمد الهواري في المدونات الفرنسية كالمجلة الإفريقية والمجلة الأسيوية أو كتابات مستقلة.

وعليه فإن الدراسة تعتمد على المنهج البيبليوغرافي المونوغرافي لأهم الدراسات الفرنسية المنجزة حول شخصية الفقيه محمد الهواري.

أولا: ارتباط حادثة مقولة السخط والوعد والوعيد على حاضرة وهران بالشيخ محمد الهواري.

تنطلق هذه الدراسة أساسا على حادثة دعوة الهواري الساخطة على وهران، مما أدى حسب الاعتقاد السائد وقتذاك، إلى استيلاء النصارى الإسبان على المرسى الكبير (1505)، ووهران (1509).[2] فمن خلال ما ورد في الأدبيات التاريخية الجزائرية خلال الفترة العثمانية ظاهرة الدعاء على وهران وتسلط الاحتلال الإسباني عليها زهاء ثلاثة قرون. وبينت بعض المصادر هذه الحادثة كالرحلة القمرية لابن زرفة[3] وطلوع سعد السعود للمازاري بن عودة [4] والثغر الجماني لابن سحنون الراشدي[5]، ودليل الحيران لمحمد بن يوسف الزياني[6].

لقد ذكر الزياني في دليل الحيران حول هذه الحادثة ما نصه: "واعلم أن سبب تملك النصارى لوهران هو دعاء الشيخ الهواري عليها، وذلك أن أهل وهران بغوا على ولده سيدي أحمد الهائج وقتلوه ظلما وعدوانا بالمحل المسمى به الآن، وهو الهائج، ووادية يقال له وادي الهائج، وادعوا عليه أنه هائج عليهم بغير حق... فعند ذلك قال لهم الشيخ...لأي شيء قتلتم ولدي يا أهل وهران، لأنه ثمرة فؤادي وقرة عيني وبضعة مني، فقالوا له: لأنه ارتكب ذنبا وثبت عليه وقتلته الشريعة. فقال لهم: من حكم بقتله

من ساداتنا العلماء؟ فقالوا له: لا نحتاج في ذلك إلى حكم حاكم، وإنما رأينا الشريعة قتلته فقتلناه. فقال لهم: أنتم قتلتم بزعمكم أن الشريعة قتلت ولد الهواري، وأن الهواري لا يجوز ولده لعدم تحقيق دعواكم، وأن قولكم في الظاهر مقبول، ففي الباطن ولدي ناج وكلامكم محلول، فسلمها رضي الله عنه للنصارى، لأنه سلطان مصرها ومتولي أمرها، وكان ممن الذين لو أقسموا على الله لبر الله قسمهم ونص دعائه:

روحي يا وهران الفاسقة. يا كثرة الجور والبغي والطارقة. يا ذات الأهل الباغية السارقة. إني بعتك بيعة موافقة لنصارى مالقة وجالقة إلى يوم البعث والتالقة مهما ترجعي فأنت طالقة.

فلما قال الشيخ ذلك، قال له بعض تلامذته الحاضرين لدعوته: يا سيدي، والفرج لاحقه، فقال الشيخ: والفرج لاحقه...ثم اعلم أن النصارى (الإسبان) لم يدخلوها بفور دعائه، وأنما دخلوها بعد وفاته باثنين وسبعين عاما لأنه توفي صبيحة السبت ثاني عشر ربيع الثاني سنة ثلاث وأربعين من القرن التاسع، في وقت الملك أحمد ابن أبي حمو موسى بن يوسف الزياني ووقت أخيه القائم عليه أبي يحي بن أبي حمو موسى بن يوسف الزياني الذي اتخذ(وهران) دار ملكه وسكناه."[7]

والظاهر أن مثل هذه الأخبار، التي يصعب تصديقها لما يرتب عنها من البدع الضالة وإلصاقها بالعلماء الصالحين، انتشرت بشكل رهيب في المجتمع المغاربي خلال الفترة العثمانية. وإذا تصفحنا كتاب المحن لوجدنا صور كثيرة عن امتحان العلماء في دينهم وأنفسهم وأهلهم ومالهم.[8] وقد جاء في حديث رسول الله صلى الله عليه وسلم: "أمتي أمة مرحومة ليس عليها عذاب في الآخرة، إنما عذابها في الدنيا الفتن والبلايا فإذا صاروا إلى قبورهم تمحيصا لذنوبهم".[9]

لعل تعلق الناس بالشيخ الهواري وغيره من الأولياء الصالحين، حيث أصبح التصوف ظاهرة وجدت طريقها نحو بلاد المغارب عن المثقفين في بداية الأمر، ثم انتقلت مع مطلع القرن 7هـ/13م إلى مختلف شرائح المجتمع، فظهرت الجماعات الصوفية، وانتشرت عديد الزوايا، فأصبح لكل زاوية شيخها وطريقتها ومريديها. ومن خلال العودة إلى كتاب " البستان" نجده يترجم لـ 7متصوفة خلال القرن 7هـ/13م، ثم لـ 18 متصوف إبان القرن 8هـ/14م، ليصل إلى عدد 44 متصوف مع مطلع القرن 9هـ/15م.[10] أولى الإشارات التي تحيلنا إلى الانتشار الواسع لظاهرة التصوف هي كثرة الاعتقادات

والكرامات عند الأولياء حيث جعلت الناس يبالغون في ظاهرة تقديس دور الأولياء فيما يقع في البلاد من الأحداث وإلصاق أدعيتهم بما جرى من العواقب والزواجر.

وما يسترعي اهتمام الدارس لظاهرة الزوايا هو ارتباط ظهورها وازدياد نشاطها بواقع حالة التوتر والحروب التي سادت علاقات الإسلام بالمسيحية سواء في المشرق أو المغرب. فالصلاح والولاية سلوك إنساني لا يختص به مجتمع دون غيره أو ثقافة دون أخرى، ولكنه تصرف إنساني وجد في كل الديانات والثقافات. شكلت الولاية والصلاح للإنسان الشعبي الدرع الواقي والحصانة السيكولوجية التي كان يستعين بها في مجابهته لقساوة الحياة اليومية. فالقصص والخرافات والحكايات الشعبية العجيبة التي كانت ترافق كرامات الأولياء ومعجزاتهم اعتقاد سائد في عالم الرجل العامي.[11]

رفعت البابوية شعار" حاربوا الإسلام أينما كان". وكان طرد المسلمين من الأندلس(1492) وملاحقة المسيحيين لهم في المغرب من الأسباب المباشرة التي ساهمت في ظهور الزوايا بصفتها قوى سياسية واجتماعية خلال القرن الخامس عشر وبداية القرن السادس عشر. وأطرت هذه المؤسسات المغاربة، ودافعت عن البلاد وأنقذت الجزائر من فقدان هويته. وعلى هذا أساس هذه الأدوار التي أدتها هذه المؤسسات قد نتساءل: ما الخصائص التي ميزت هذه الزوايا؟ وكيف تم لها ذلك، وفي أية ظروف؟ لاشك أن هذا موضوع آخر، لكن ما يمكن أن نلاحظه على امتداد المرحلة الاستعمارية الفرنسية، أن المستشرقين أحسنوا توظيف مثل هذه الشائعات والبرهنة عليها وإلصاقها بعلماء وفقهاء الجزائر في الفترة التي سبقت الاحتلال الأوروبي للثغور الجزائرية.

يستدعي الكلام عن الزوايا الوقوف عند المصطلحات المرتبطة بها: الرباط والولاية والكرامة.[12]

ونلاحظ أن هذه المصطلحات تندرج ضمن حقلين في دلالة المقدس: فبعضها يحيل على المجال كالزاوية والرباط، والمصطلحات الأخرى تحيل على التعبد والعبادة وتشترك المصطلحات كلها في كونها ترتبط بالإنسان. والملاحظ أن الأزمات التي عرفتها الجزائر خلال القرن الخامس عشر ومطلع القرن

السادس عشر كانت من العوامل الأساسية التي أدت إلى ارتباط الجزائريين وتشبتهم بمؤسسات المقدس: الزاوية والرباط والولاية.

والغالب على الظن أن الأمية كانت متفشية والثقافة محصورة في قلة قليلة في المغرب الأوسط. وكان الناس على اتصال مباشر بالطبيعة، مع العلم بأن أسرار كثيرة تغيب عنهم. وكانت الظروف التي يعيشها الجزائريون صعبة من جراء الأوبئة والجفاف والمجاعات والهجمات الأجنبية. ورأى الناس في هذه المحن عقابا من الله وتشبثوا بالزوايا وآمنوا بكرامات الأولياء ورأوا فيها بصيص الأمل. وجاءت كرامات الأولياء معبرة عن مشاغل العصر: فهذا الشيخ الهواري...ولهذه الكرامة، على ماي ظهر، ارتباط...الذي كان يعاني منه سكان وهران .. من خلال ما سبق، نلاحظ كيف تغيرت الولاية مفهوما وممارسةً: فمن الولي الصالح التقي النقي المتفاني في عبادة الله استعدادا ليوم الميعاد، إلى الولي الذي أنتجته الأحداث التاريخية. لقد برز هذا الأخير لا كما سعت الكتابة الفقهية إلى تقديمه نظريا، بل برز إنسانا تاريخيا.

لقد وردت حادثة استرجاع وهران الأول (1708) فيما أورده الجامعي، في شرح الحلفاوية قائلاً:" وقد بلغنا أن الله تعالى اعتنى بتبشيرها، وجعل بعض أوليائه يريد بشيرها، فرأى بعض الناجين فيها، ليلة الفتح المذكورة. الشيخ سيدي محمد الهواري وهو يقول له: اصنع لي تابوتا يكون على قبري بوهران، وأنا الهواري فقال له: يا سيدي، إلى أن تفتح، فقال له: قد فتحت هذه الليلة."[13] ولعله في هذه السياق يمكن وضع هذه الكرامات في ما رواه ابن مريم حول معرفة النبأ قبل حدوثه، وحادثة المرأة التي استغاثت به في شأن ولدها،[14] كما أوردت بعض المصادر مكاشفات الهواري، واطلاعه على الغيب، وهذا ما رواه ابن صعد في روضة النسرين.[15] لقد ساد الاعتقاد في كرامات الهواري وهي من الأباطيل التي ألصقت بالشيخ الصوفي لا علاقة له بها.

ثانيا:حياة الهواري وآثاره العلمية.

يعد الولي الصالح سيدي محمد الهواري أحد أقطاب التصوف المغاربي وأحد الأولياء البارزين في وهران، وقد نوهت المصادر بفضله وعلمه وأنه مستجاب الدعاء. كما وردت أخبار عن سيرته في

كتاب(الثغر الجماني) وفي كتاب (روضة النسرين)، بأنه ينتسب إلى قبيلة مغراوة في منطقة الشلف وأنه انتقل في طفولته إلى هوارة حيث بلاد بني شقران، والتي تدعى بقلعة بني راشد.[16]

ولد الشيخ الهواري سنة (751-843هـ/1350-1439م)، تلقى تعاليم الشريعة في الكتاتيب، ثم أخذ طريق الصوفية حسب ما ورد في المصادر.والجدير بالملاحظة أن هذه الأخبار التي وردت في مؤلف الراشدي منقولة، وشاعت في معظم الكتب التي روت عنه سيرة الهواري.

ومعلوم أن الشيخ طاف بالبلاد شرقا وغربا يطلب العلم الشرعي ويلقى المشايخ والأولياء ويأخذ عنهم المتون والإجازات، فتوجه إلى بجاية سنة 767هـ، وتتلمذ على عبد الرحمن الوغليسي البجائي (ت سنة 786هـ) وعلى أحمد بن ادريس البجائي. ثم ارتحل إلى فاس، فأخذ عن موسى بن محمد بن معطي العبدوسي (ت سنة 796هـ)، وعن أحمد بن قاسم بن عبد الرحمن القباب (المتوفى سنة 778هـ)، كانت له دراية واسعة في علوم الدين والعقيدة، وبرع في التفسير والحديث والتصوف وعلوم القرآن.[17] للشيخ محمد الهواري جملة من التأليف في شكل أنظام بلسان العوام، منها: التنبيه وكتاب السهو وهو منظومة في الطهارة والصلاة. أما منظوماته في التصوف والأخلاق فهي: التسهيل والتبيان وتذكرة السائل.[18]

ثالثا: مقولة الهواري حول السخط والوعيد على وهران واحتلالها في ضوء الكتابات الفرنسية.

من بين أكثر القضايا إثارة وجدلاً في تاريخ وهران والمدن الجزائرية عامة مسألة الأدعية الساخطة المستعملة على ألسنة العوام التي ألصقت بها. لابأس من التذكير بأن الباحثين في تاريخ الجزائر حول هذا الموضوع لطالما اشتكوا من شح المادة المصدرية ووقوفها حائلا دون الوصول إلى نتائج مرضية، لذلك كان علينا العودة إلى الكتابات الفرنسية الاستشرافية خلال الفترة الاستعمارية، وترتبط أساسا بموضوع التصوف، والمظان في حقيقة الأمر لا يخرج عن الطبيعة الفقهية- الصوفية.

إذا كانت الدراسات الاستشرافية التي حملتها المجلات خلال فترة الاستعمار، قد قاربت بشكل أو بأخر موضوع الأدعية الساخطة على الساكنة ومدن الجزائر وخاصة الغربية منها، فإن الهدف من

ذلك لم يكن رصد ما تعانيه الساكنة من هواجس الانتقام من الأولياء والمرابطين الصلحاء، بل ظل الهاجس في الغالب تبرير أسطورة الاستعمار بقابلية الاحتلال والتواجد الأجنبي.

هكذا وعلى الرغم من افتقارنا إلى إشارات صريحة حول الموضوع، فإن المعلومات التي توفرت لدينا رسمت لنا صورة عن حالات ومناسبات شبيهة بحالة وهران. تتضح إذا محاولة هؤلاء المستشرقين الفرنسيين، إثبات الحقائق مدعمين بمنهجية سوسيولوجية وأنثروبولوجية.

1- والسين إسترهازي. (Walsin-Estherhazy Louis Joseph Ferdinand)[19]

ضابط فرنسي (1807-1857م) رافق معظم الحملات الفرنسية في الجزائر منذ دخوله إليها سنة 1832.ارتقى إلى رتبة جنرال في الجيش الفرنسي ومكث بالجزائر مدة ثمانية عشر سنة. اهتم بالتنظيمات العسكرية العثمانية بالجزائر.ترك كتابا قيما عن مخزن وهران تناول فيه المناطق الغربية للجزائر وعلاقة جيش الاحتلال بمقاومة الأمير وقبائل الدوائر والزمالة وتعداد القوات الفرنسية بالمنطقة.[20]

يبقى كتاب إسترهازي "**السيطرة التركية لأيالة الجزائر**" هو الإنجاز الأهم في تأريخ تطور الأدعية الساخرة في الجزائر خلال الفترة العثمانية من منظور ديني أنثروبولوجي استعماري، حيث يشدد الضابط الفرنسي.

وعبر حشد كبير من التعابير والمقولات الساخرة، على أن هذه الأدعية الساخطة انبنت تدريجيا على الذاكرة والاعتقاد السائد زمنئذ في المتصوفة والأولياء. وهذا يعني ضمن فرضية أن الأدعية الساخرة اعتمدت بدرجة كبيرة على عملية توارث الذاكرة الشعبية في مختلف المدن الجزائرية، وهنا نلاحظ أن الضابط الفرنسي خص هذه الظاهرة في مجال جغرافي يتمثل في الغرب الجزائري كخط يلامس فيه ثقافة الجزائريين واعتقاداتهم الساذجة في المتصوفة عن طريق السخرية. ومن الأمثلة التي ذكرت في الكتاب:

- مازونة: " يحجو بكبارهم بصغارهم وتأكلهم النار بترابهم بحجارهم".
- تنس: " تنس مبنية على دنس، ماها دم هواها سم والله بن يوسف مايبات ثم"[21]
- مستغانم: " أهل مستغانم مطلعين البلغا على حس المضغة".

- بنو عامر: " دمر عليهم الله نبوح الوسط بنو دمار".[22]
- شلف:" خير الأوطان تخلي بعد العمارة وتصير دكان ويعمرك الفرانصيص النصارى".
- المتيجة: " متيجة بقرة سمينة وشحمها للقسيس لولها للترك وأخر للنصارى".[23]
- البليدة: " الناس قالو لك البليدة، أنا سميتك وريدة".[24]

كثيرة هي المدن التي ذكرها مثل تلمسان ومعسكر والمدية. والسؤال الذي يظل قائماً لماذا ركز هؤلاء الضباط على الاعتقاد الساخرة للجزائريين على الساكنة والمدن؟

2- أوغست قورقوس (Auguste Gorguos).

رافق المستعرب الفرنسي قورقوس جميع حملات المارشال كلوزيل (Bertrand Clauzel)[25] على حواضر الجزائر منذ 1836م. تقلد مناصب سامية في مؤسسات الدولة الفرنسية بالجزائر، وانتدب لتدريس اللغة العربية بالجزائر حيث تعلم مبادئها على يد برزيني (Louis JacquesBresnier)[26]، ثم عمق معرفته باللغة في معد الدراسات الشرقية بباريس. اختص في تحقيق ودراسة المخطوطات العربية إلى جانب المستعرب شيربونو (Jacques – Auguste Cherbonneau) منذ 1850م، كما يعد من المترجمين البارزين وأحد مؤسسي الجمعية التاريخية الجزائرية. نشر عديد المقالات في المجلة الإفريقية ما بين 1856-1861م[27] وقد انتدب قورقوس من طرف إدارة الاستعمار لتولي كرسي اللغة العربية بقسنطينة منذ تأسيسه سنة 1857م.[28]

لقد خصصت دراسات قورقوس فقرات مهمة للحديث عن سيدي محمد الهواري. وقد عبر قورقوس في دراسته (ملاحظات **حول باي وهران محمد الكبير**) عن مؤثرات الهواري في ساكنة وهران من خلال الكرامة والولاية ودعوته حول تسليط المحتل الإسباني على وهران وبقائه فيها مدة طويلة تقارب قرنين ونصف (1505-1732/1708-1792)، وأشار إلى كتاب حزب العارفين، الذي استند حسب قورقوس على روايات معاصرة تشير بأن الهواري باع وهران للكفار، انتقاما لمقتل ولده، وأنه ترك ابنا أخر اسمه عبد الرحمن بن حامد وذريته التي لقيت التبجيل والتقديس من لدن ساكنة وهران.[29]

3- هنري فاي(Fey, Henri)

ليس من قبيل الصدفة أن يؤرخ هنري فاي لوهران ويتناول تاريخها مع التركيز على الاحتلال الإسباني للمرسى الكبير ومناطق وهران من دون الحديث عن سيدي محمد الهواري وإلصاق تهمة الدعاء عليها وقابلية وهران وساكنتها للاحتلال وكأنه قضاء وقدر ونهاية العالم حسب تعبير فاي.[30] يتميز كتاب فاي (وهران قبل، بعد، أثناء الاحتلال الإسباني)، بأنه كتاب محوري يعتمد على مخطوط إسباني يعود تاريخه إلى سنة 1732، وهو مهندس ومحافظ مدني بوهران، وكان عضو مراسل للجمعية التاريخية الجزائرية.

4- إدمون ديستانغ. (Destaing, Léon Edmond)

عاش إدمون ديستانغ خلال الفترة الممتدة ما بين (1872-1940)، وشهد ما أنجزه الاستعمار الفرنسي في الجزائر. وفي مضمار هذا التطور في المعرفة العلمية والحضارية حسب المفهوم الاستعماري، ومارس التبحر في التنقيب والتحقيق في تراث الجزائر الديني والصوفي، وهذا بحكم طبيعة عمله، إذ يعد من رواد تدريس اللغتين العربية والأمازيغية بمعهد الدراسات الشرقية بباريس، وقد تتلمذ على يد الشيخ بلقاسم بن سديرة[31] الذي مكنه من معرفة اللغتين. درس ديستانغ بمدرسة الجزائر الرسمية (1894-1902)، ثم انتقل إلى التدريس بمدرسة تلمسان في عهد إدارة وليام مارسيه (Marçais William)[32]، ثم ألفرد بيل (Alfred Bel).[33]

اهتم ديستانغ باللهجات المحلية وتراث الجزائر الصوفي فتجول في كامل إقليم الغرب الجزائري بين أحضان قبائله. وقد كتب بحثا مطولاً عن شخصية سيدي محمد الهواري. ينطلق الباحث الفرنسي من موقف الكتاب الفرنسيين حول الأدعية الساخطة والساخرة على سكان ومدن الجزائر خلال الفترات التي سبقت الاستعمار الفرنسي للجزائر. إذ يضع الباحث ثبتاً شاملاً للدراسات والمصادر التي تناولت بالبحث والدرس شخصية الصوفي سيدي الهواري. ويبدو أن نظرية ديستانغ في هذا البحث أنها تتأرجح بين الأطروحة الاستعمارية وهي حتمية الاستعمار وبين دور إرادة البشر في تقبل الاحتلال من خلال الاعتقاد في كرامات الأولياء وعملية تدخل في إطار الإنتاج الاجتماعي للأفكار المتوارثة عبر الأجيال عن طريق الروايات التي تصبح تاريخ حدثي موثق.

استجمع ديستانغ نصوص الذاكرة التاريخية من طبقات المصادر المغاربية، وبينت أبحاثه كدرب على طرائق الاستشراق الفرنسي ورواده، ولاسيما مدرسة الجزائر وباريس. فقدم ديستانغ نفسه في جهده التوليفي والتوثيقي هذا، مؤرخا لظاهرة التصوف الجزائري من خلال شخصية سيدي محمد الهواري، فعبر من هذا الموقع في بحثه (قديس مسلم في القرن الخامس عشر: سيدي محمد الهواري.[34]

في معرض حديثه عن شخصية الصوفي محمد الهواري وعلاقته بوهران، استوقفنا عند أهم المصادر الخبرية التي تناولت حياته وألقابه وتربيته ودراسته ورحلاته، لكن ما يمكن أن نلاحظه على امتداد ترجمته للشيخ أنه يعتمد كلية على ابن صعد في روضة النسرين. وكشف لنا بأنه دفين وهران وهو مزار مقدس من الساكنة كولي من أولياء الله الصالحين، تقام له الزيارة كل يوم سبت لأنه توفي في مثل هذا اليوم، وهو مقصد النساء من الجزائر والمغرب، وعند دخولهن يرددن المقاصد التالي:[35]وفي كل سنة من شهر سبتمبر تقام وعدة الولي التي يحضر فيها السكان القادمين من كل حدب وصوب، فيستقدمون أمتعتهم ويحضرون وجبات الكسكس، وتستعرض الفانتازيا والفروسية وينتشر القوالة في الطحطاحة لسرد قصص عن كرامات الولي ومعجزاته.ومن خلال كتاب (بساط الملوك) فإن الولي ترك أربعة أولاد: الجيلالي- أحمد- عبد الرحمن- محمد، الذي أمر بقتله ودفن بوهران.[36]

تكشف لنا الروايات التي سجلت في المصادر عن المكاشفات والكرامات التي نسبت إلى سيدي محمد الهواري، إلا أن معظمها أخذ عن البستان لابن مريم.[37] ويمكن تلخيصها فيما يلي:

- اطلاعه على نوايا الأفراد.
- يجيب عن الأسئلة ببداهة مطلقة وكأنه يعرف السائل مسبقا." ويجيبه عما في ضميره، حتى العلماء يعضل عليهم فهم النوازل"
- اطلاعه على الأمور الغيبية: " ما تأتي به السفن من الفواكه إلى ميناء وهران يعلمه قبل وصوله".[38]

- رؤية أحد النجارين ليلة فتح وهران" رأى أحد النجارين، الشيخ سيدي محمد الهواري وهو يقول له: اصنع لي تابوتا يكون على قبري بوهران، وأنا الهواري فقال له: ياسيدي،إلى أن تفتح، فقال له: قد فتحت هذه الليلة."[39]

- إخبار سيدي الهواري بوفاة السلطان أبو فارس الحفصي الذي حاول غزو تلمسان في عهد حاكمها أحمد.[40]

- حادثة المرأة التي استغاثت به في شأن ولدها، الذي كان أسيرا في بلاد النصارى، فأطلقت نصرانية ابنها وافتكته من الأسر، وهذا بفضل مناقب الشيخ الولي سيدي محمد الهواري.[41]

- دعاء الشيخ على وهران وتسليم وهران للكفار النصارى، وهذا بعد 72 سنة أي في سنة 914هـ/1509م. "لم يدفن (الشيخ) بسيدي مسعود بتارقة أو بسيدي سعيد بشافع(المالح)، فإن ذلك من خرافات العامة...ولم يدخل النصارى الإسبانيين في حياته وإنما دخلوا بعد وفاته باثنينوسبعين عاما..."[42].

5- لويس بياس (Louis Piesse)

يعد كتاب بياس(1815-1890) من الكتب البيبليوغرافية التي اهتمت بتاريخ وجغرافية وحضارة الجزائر منذ القديم،[43] وهو عمل تكميلي لما قام به الحاكم العسكري لإقليم وهران الجنرال بروسار(Brossard) سنة (1837-1840)،حيث جمع المعلومات والمعطيات من خلال الكتب والمقالات والجرائد والرحلات وتقارير الجيش والإدارة الاستعمارية مابين 1840-1882. نشر بياس الكتاب لأول مرة سنة 1860، ثم نقحه وطبع في سنة 1882.

أشار بياس إلى خضوع وهران مند سقوط الدولة الموحدية سنة 667هـ/1269م، إلى عدة دول منها المرينيون وبنو عبد الواد والحفصيين ثم إقامة ملك غرناطة بها مولاي محمد، ثم عودة الحفصيين إليها سنة 841هـ/1437م،[44] وكشف بياس بأن وهران وفي مدة نصف قرن خضعت لحكم دول مختلفة ما بين(761هـ-1380-841هـ-1737م).[45]

يعد كتاب (مسار الرحلة في الجزائر)، من الدراسات الفرنسية الأولى التي أشارت إلى الدعاء الساخط على وهران الذي انتسب إلى وليها سيدي محمد الهواري، والذي كان سبب وقوعها بين أحضان الاحتلال الإسباني، إذ وقع المرسى الكبير عام 1505، ووهران عام 1509. ثم الاحتلال الثاني لوهران في 30 جوان 1732(1206هـ)،في عهد الملك الإسباني فليب الخامس(1683-1746).[46]

6- رونيه باصي (René Basset)

كبير المستشرقين الفرنسيين (1855-1924)ومدير مدرسة الآداب في الجزائر حوالي أربعين سنةوهذا منذ 1880. [47]كان في خدمة الاستشراق الفرنسي في الجزائر طوال هذه الفترة، حيث سخر لخدمة الإدارة الاستعمارية بكل حرص وجهد.وجند الفرنسيين والجزائريين معاً ووظفهم للتدريس والبحث والتأليف والنشر، أستاذ اللغتين العربية والأمازيغية بامتياز.

كانت الحكومة العامة تسانده بالمال للقيام بأبحاثه وأبحاث تلاميذه وبعثاتهم ورحلاتهم. توجته الإدارة سنة 1905 برئاسة مؤتمر المستشرقين الدولي 14 في الجزائر. كانباصيه يتقن عدة لغات فعمل أستاذا بمدرسة الآداب بالجزائر سنة 1885 ثم عين مديراً لها سنة 1894،ليصبح عميد كلية الآداب بجامعة الجزائر سنة 1911. ترك إنتاجاً غزيراً لاسيما في الدراسات العربية والبربرية وقد ترجمت أعماله تكريما له من طرف تلاميذه وأصدقائه.[48]

كان باصي يتجول في الجزائر بحثاً عن المكتبات والمخطوطات. وهي عدة المستشرقين،وقد ترك وصفا لفهارس المكتبات في بعض الزوايا والمناطق ومنها بعض المناطق في الصحراء الجزائرية.[49]

ركزت أعمال باصي حول المخطوطات العربية بشكل خاص، وهو ما لاحظناه في معظم دراساته. كما اهتم باصيه بالمخطوطات العربية لزاوية الهامل ببوسعادة، ومخطوطات مكتبات الزاوية التجانية في عين ماضي وتماسين وورقلة، ومخطوطات الباش أغا الجلفة، ومكتبات وادي ميزاب. ترك باصي وصفا لمكتبة الهامل التي اعتمد عليها جل الدارسين للمخطوطات، وساعده في ذلك تمتعه بالنفوذ لدى الإدارة

الاستعمارية، وقد طلب باصي من شيخ الزاوية عندئذ، محمد بلقاسم، قائمة المخطوطات التي بالزاوية، عن طريق وساطة الجنرال كولي ميقريه (Collet – Meygret) قائد وسط الجزائر.[50]

لقد أشار المستعرب الفرنسي باصي بأن بحثه حول الأقوال والأدعية الساخرة، الساخطة على المدن

والقبائل الجزائرية في الفترة التي سبقت الاحتلال الفرنسي، ماهي سوى تقليد يندرج ضمن الأدب الشعبي المعروف عند الشعوب السامية، فهو عبارة عن أدعية توبيخية، ربطها المستعرب بتراث التوراة. لقد وردت هذه المقولات لأول مرة عند الضابط الفرنسي إسترهازي الذي جمع 59 مثل،[51]ثم أكملها باصي في 115 مثلا.[52]

ومما ورد في هذه الدراسة أنه قدم عرضا شاملا للتصوف في بلاد المغرب وركز على الجزائر عبر سلسلة الشيوخ. إن الخلاصة التي تسجل لنا من خلال تتبع ماكتبه المستعرب باصي في هذه الدراسة أنه ربط الويل والدعاء الساخط على وهران وما جاورها من خلال حادثين للوليين صالحين هما أحمد بن يوسف دفين مليانة وسيدي محمد الهواري، فالهواري دعا بسبب مقتل ابنه، وأحمد بن يوسف بسبب سجنه من طرف أبو حمو الثالث الذي هادن الإسبان، وتعرض لسخط سكان تلمسان، فهرب واحتمى بالإسبان.[53] من الأدعية الساخطة الذي ساقها باصي حول إقليم وهران:[54]

رقم1: بني وراغ، رغت منهم الأنبياء والأولياء.

رقم2: بني عامر دايرتكم يهود، ودراهمكم دية موجود (بسبب تحالفهم مع الإسبان).

رقم7: أهل غمرة، القوم مرة، صرهم في صرة، واقطعهم في مرة، تريح من ذيك الجرة.

رقم25: مستغانم، مسك الغنايم، إلى دخلها شهيد، وظالمها ما يموت كيف يريد؟ (الصوفي سيدي عبد الرحمان أبو حميد سنة 1559)

رقم27: وهران الفاسقة، بعتك بيع الموافقة، النصارى ثم لقا إلى يوم البعث واللقاء (سيديمحمد الهواري).[55]

من الواضح أن الدعاء الساخط لسيدي الهواري شمل سلاطين بني زيان بسبب مقتل ابنه ظلما وعدوانا، وقد نظم أحد مريديه (علي الأصفر التلمساني) شعرا حول وهران، كما قام المترجم العسكري أنطوان أرنو (Antoine Arnaud) (1835-1910) بنشر القصيدة في المجلة الإفريقية تباعا: العدد25(1881)، العدد26 (1882)، العدد27(1883)، العدد 28(1884).[56]

رقم 28: وهران الفاسقة، يدخلوها الدراهم كالحشيش، ويطيرو كالريش.

7- إدمون دوتي. (Edmond Doutté)

انطلاقا من تصرح إدمون دوتيه(Doutée Edmond) (1867-1926)في إحدى ورقاته حول العمل العلمي لمدرسة الآداب بالجزائر:"إن الاستشراق هو بالطبع الحقل الرئيسي للدراسات في مدرستنا، ومن داخل الاستشراق تأتي اللغة العربية والمسائل الإسلامية".[57]وإذا بحثا في الممهدات التاريخية للاستشراق ومحور مدرسة الآداب بالجزائر فإنها أثرتبشكل كبير على الدراسات الاستشراقية الفرنسية.

يعد دوتي من كبار الإثنوغرافيين الفرنسيين في المغرب العربيوأحد أبرز مؤسسي أنثروبولوجيا الدين بالمنطقة. لقد شغل منصب إداري بالبلديات المختلطة بإقليم قسنطينة منذ دخوله الجزائر عام 1887، غير أنه تحول فيما بعد إلى مزاولة نشاط التعليم في المدرسة الشرعية بتلمسان سنة 1898، وقام بمهمات علمية استكشافية إلى المغرب بأمر من السلطات الاستعمارية ما بين 1899-1906.وقد اهتم بالدعاية الإسلامية لصالح فرنسا خلال الحرب العالمية الأولى، وحارب أفكار الجامعة الإسلامية بفرنسا مع مراقبة نشاط المهاجرين المغاربة منذ 1924. على أن الواصل بين مهنته في البحث جعلته يوظف معرفته العلمية لصالح الإدارة الفرنسية بكل تفاني.

نشر دوتي جل أعمال حول التصوف والمذاهب في الجزائر، وتناول تاريخ الحركات المذهبية والطرق الصوفية جغرافيا ورصد تحركاتها ومواردها المالية انطلاقا من أبحاثه التنقيبية والميدانية، كما ركز على الإيديولوجية الدينية.[58]

اهتم المستعرب الفرنسي دوتي بالدين الإسلامي وبالعقيدة وخصائص الإسلام بالجزائر من خلال المرابطين والطرق الصوفية وأعيادهم ومواسمهم الدينية، كما ركز على تأطير الإدارة الاستعمارية للدين الإسلامي طول فترة الاحتلال.[59] تناول كتابه: (ملاحظات عن الإسلام المغاربي والمرابطون)[60]، الدعوة الساخطة لسيدي محمد الهواري على وهران وتسلط الاحتلال الإسباني عليها بعد وفاته. وذكر بأنه أهين من طرف الوهرانيين.

استعرض دوتي في كتابه (مدونات عن الإسلام المغاربي) أطروحات خطيرة عن الإسلام والعقيدة وربطها بالطقوس البدائية متماشيا مع خط الاستشراق الذي حاول تشويه الإسلام وربطه بالعقائد الوثنية من خلال التمسك بالأولياء وزيارة الأضرحة، وكأن إسلام المغاربة عبارة عن خرافات طقسية، يقول في هذا المجال:" انصاعت العقيدة الإسلامية إلى التبرك بالصلحاء وتقبله كعقيدة... واستمرت زيارة الصلحاء طيلة العصر الوسيط، وشواهدها موجودة بكتب التراجم، إن كتابة تاريخ زيارة الصلحاء في المغرب العربي ما قبل القرن السادس عشر أمر ينتظر الإنجاز بيد أن البحث فيها شاق وصعب. ونشأت زيارة الأولياء خلال هذه المرحلة، بطرق لافتة للنظر وبدافع ديني..."[61]

8- كورنال ترومیلي (Colonel Corneille Trumelet)

العقيد ترومیلي (1817-1892) مؤرخ وعسكري فرنسي، خدم في الجيش الفرنسي بالجزائر ما بين (1851-1875)،تقلد مناصب عسكرية عديدة، ومكث مدة طويلة ببوفاريك والبليدة، انتسب في عضوية الجمعية التاريخية الجزائرية. وتجدر الإشارة أنه ترك انتاجا غزيرا فيما يتعلق بتاريخ المدن الجزائرية والصحراء ومترجمي الجيش الفرنسي، كما اهتم بالمتصوفة وزيارة الجزائريين للأولياء الصالحين.[62]

تتبع ترومیلي في كتابه (الجزائر: الأسطورة، زيارة الأضرحة) زيارة أضرحة الأولياء في الجزائر. وضمن كتابه بلمسات جغرافية وأنتنوغرافية. واللافت للنظر أن كتابه هذا أشار إلى زيارة الأضرحة مرتبا تسلسلهم حسب جغرافية الجزائر من الشرق وجنوب شرق حيث ذكر 19 وليا بداية بسيدي علي بن محمد وانتهاء بسيدي الحاج إبراهيم. أما مسار الرحلة والزيارة شرق- غرب فترجم لـ 30 وليا بدء بسيدي عبيد وانتهاء بسيدي بوجمعة. ترجم ترومیلي للعالم الشيخ محمد بن عمر الهواري في كتابه الرتبة الأربعة

والأربعون في مجموع 49 ولي يتوزعون على جغرافية الجزائر. ذكر بأنه اشتهر في حاضرة وهران، كرجل صوفي له كرامات وخوارق، واعتمد في هذه البيليوغرافية على ماذكره ابن صعد في روضة النسرين، ومما ذكره حول كراماته، أنه ذات ليلة دخل عليه جني وبحوزته ورقة بـ 24 سؤالاً فأجاب عنها بكل سهولة، وكان ذلك سنة 385هـ/1383م، واستنادا على مخطوط حزب العارفين، أشار تروميلي إلى دعوة الشيخ على وهران وأنه باعها للكفار انتقاما منه على الساكنة والمدينة، وممن شهد على ذلك الولي سيدي علي الأسرار. كما أشاد بالباي عثمان بن محمد (1779-1798) الذي بنى ضريح سيدي الهواري سنة 1213هـ/1798م، وأقام مسجدا بقربه.[63]

يخلص الباحث الطاهر بونابي في كتابه حول التصوف في الجزائر أن المهتمين بدراسة تاريخ التصوف في المغرب الأوسط خلال القرنيين 6-7هـ/12-13م، لم يعيروا الكرامات الصوفية أدنى قيمة، واعتبروها ظاهرة سلوكية مرتبطة بقوى غيبية، ومشاهدات ومكاشفات سحرية وخرافية، بينما هي في حقيقة الأمر واقع أفرزته الظروف التاريخية على مناحي الحياة الاجتماعية والاقتصادية والسياسية. واستدل بقول ابن القنفذ القسنطيني (ت 810هـ-1407م)، في قوله: " لا ينكر الكرامة إلا معاند محروم سيئ الاعتقاد وكثير الانتقاض". [64] أما الونشريسي (ت 914هـ-1508م)، فقال في شأنها:" بأنها فعل خارق للعادة تظهر على يد عبد صالح في دينه متمسك بسنة الله في جميع أحواله من غير ذي التنبؤ".[65]

كان المستشرقون الرائد الناصح والمستشار المعين له في كل المجالات، ولم تكن بحوثهم في الإسلام وتاريخ الشعوب وحضاراتهم إلا التحريف والتزييف والتلاعب بعقيدة الإسلام وتشويه صورة الدين والأمة، وإحداث الثغرات في الصفوف بعد التوحيد، وكان همهم الوحيد من وراء البحث وتقصي الحقائق هو الخداع والاحتيال باسم الحضارة والإنسانية.

والحصيلة، مثلت مسألة الأدعية الساخرة والساخطة الناقمة على مدن الجزائر وسكانها أساس الجدل في الكتابات الاستشراقية الفرنسية، التي حاولت التأكيد على صحة المقولات ونسبتها إلى شيوخ وعلماء أجلاء في التصوف. فمن خلال ما سبق يبدو أن هؤلاء حاولوا إلصاق مثل هذه الاعتقادات في

ذاكرة العلماء، الذي كانوا يحثون على ترك البدع ما ظهر منها وبطن، والاستنارة بالعلم الصحيح والتحلي بالعمل الصالح.

تعامل المستشرقون مع التراث الجزائري بعد الاطلاع على فهارسه، في شكل أبحاث وملاحظات وانطباعات، بالنقل والنسخ والترجمة والمقارنة والمقابلة بين نصوصه، وباقتطاع الوثائق والمقتطفات التاريخية، والتعرض لها بالشرح والتعليق والتعييب. لعل أو ما يعاب على الفعل الاستشراقي في مجال التاريخ، استمرار وفائه لقاعدة تعامل الاستشراق من حيث تغيير المصطلحات وتكييفها مع الثقافة الغربية.

لقد أكبر القرآن الكريم العقل، واعتبره أساسا للتفكير بخلق الإنسان، والسموات والأرض، ودليلاً للإيمان، وفي الوقت نفسه ذكر الأنبياء ومعجزات خارقة للعادة، وذكر القرآن كرامات الأولياء، لذلك فرق علماء الكلام بين المعجزة والكرامة، بأن يشترط فيها التحدي.

الهوامش:

1-المدونة الفرنسية التي اهتمت بشخصية العالم محمد الهواري تمثلت فيما يلي:

- M.walsin, Esterhazy, De la domination turque dans l'ancienne régence d'Alger, Paris, libraire de Charles Gosselin,1840.
- Gorguos, Auguste, « Notice sur le bey d'Oran, Mohammed el-Kebir », In, RA, n°1,1856, pp.454-463.
- Fey, Henri Léon, Histoire d'Oran,avant,pendant et après la domination Espagnole,Oran,Adolphe Perrier,1858.
- Piesse, Louis, Itinéraire de l'Algérie, de Tunisie de Tanger, Description matérielle, Paris, Hachette, 1882, pp.182-329.

- Destaing, Léon Edmond, « Un saint musulman au XVe siècle : Sidi Mhammed El- Haouwari », In, Journal asiatique, n°, Sept-Oct,1906, pp.295-342/395-438.
- Doutté, Edmond, Notes sur l'Islam Maghrébin : Marabouts, Paris, Ernest leroux,1900, p.60.
- Basset,René, « Les dictons satiriques attribués à Sidi Ahmed ben Yousouf », In, journal asiatique, t. XVI, Sep-Otobre,1890, pp.203

(2) إن سقوط غرناطة سنة 1492م، قد عجل بانطلاق الطاقات الإسبانية نحو مغامرات ما وراء البحار. وقد كانت إفريقيا على قربها الشديد الاختيار المنطقي الأول في هذه الاستراتيجية. وفي الوقت نفسه فإن هجرة الموريسكيين قد خلقت التأزم ووفرت سببا لتعليل التدخل الإسباني. تتمثل أهداف هذا الاحتلال في قطع الطريق أمام الأندلسيين الفارين وعزلهم داخل إسبانيا. كما يتضمن برنامج الإسبان بعد هذا الاحتلال في تعمير هذه المدن بالإسبان وجعلها مدنا مسيحية. للمراجعة ينظر:

Fernand, Braudel, « les Espagnols en Afrique du Nord de 1492 à 1577 », in R.A, n°49, 1928, pp. 184-233 / 351-428.

Elie, de la primaudi, « Documents inédits sur l'histoire de l'histoire de l'occupation Espagnols en Afrique (1516-1574) », in, PP. 136-150.,R.A, n°20, 1876

وأيضا: محمد، دراج، الدخول العثماني إلى الجزائر ودور الإخوة بربروسة (1512-1543)،ط2، الجزائر، شركة الأصالة للنشر والتوزيع، 1434هـ/2011م.

(3) ابن زرفة، مصطفى بن عبد الله الدحاوي، الرحلة القمرية،(تحقيق: مختار حساني)، منشورات مخبر المخطوطات، جامعة الجزائر،2003.

(4) المزاري، الأغا بن عودة، طلوع سعد السعود في أخبار وهران والجزائر واسبانيا وفرنسا إلى أواخر القرن التاسع عشر، (تحقيق ودراسة: يحي بوعزيز)، طبعة خاصة، الجزائر، عالم المعرفة، 2009، جزآن.

(5) الراشدي، أحمد بن محمد بن سحنون، الثغر الجماني في ابتسام الثغر الوهراني، (تحقيق وتقديم: الشيخ المهدي البوعبدلي– اعتناء: عبد الرحمن دويب)، طبعة خاصة،2013، الجزائر، دار المعرفة العالمية.

(6) الزياني، محمد بن يوسف، دليل الحيران وأنيس السهران في أخبار مدينة وهران، (تحقيق وتقديم: الشيخ المهدي البوعبدلي– اعتناء: عبد الرحمن دويب)، طبعة خاصة، الجزائر، دار المعرفة الدولية، 2013.

(7)دليل الحيران، ص ص 60-61.

(8) أبو العرب محمد أحمد، التميمي، كتاب المحن (تحقيق: يحي وهيب الجبوري)، ط3، بيروت، دار الغر بالإسلامي، 1427هـ/2006م.

(9) مسند أحمد 4/ص ص 408-410. فيض القدير 185/2.

(10) ابن مريم، محمد بن أحمد المديوني، البستان في ذكر الأولياء والعلماء بتلمسان، (اعتناء ومراجعة: محمد ابن أبي شنب)، الجزائر، المطبعة الثعالبية، 1326هـ/1908م.

(11) رندال، جون هرمان، تكوين العقل الحديث، (ترجمة: جورج طعمة)، ط2، بيروت، دار الثقافة، 1965، ج1، ص ص 69-77.

(12) قدم الشيخ عبد الكريم الفكون المتوفى عام 1073هـ/1662م، جملة من النصائح العامة في كتابه منشور الهداية، وأكد على ضرورة التخلص من الشعوذة والخرافة والاعتقاد في المتصوفة الخارجين

عن شريعة الإسلام، وكانت هذه الظاهرة متفشية في أوساط المجتمع الجزائري طوال الفترة العثمانية، والتي استغلها الفرنسيون فيما بعد. وقد ترجم الشيخ لـ 73 شخصية صوفية. حول هذا الموضوع يراجع: عبد الكريم، الفكون، منشور الهداية في كشف حال من ادعى العلم والولاية، (تقديم وتحقيق وتعليق: أبو القاسم سعد الله)، ط1، بيروت، دار الغرب الإسلامي، 1408هـ/1987م.

(13)Destaing, Léon Edmond, op.cit., p.425.وأيضا: أغصاي، علي، شرح أرجوزة الحلفاوي في فتح مدينة وهران للشيخ أبي زيد عبد الرحمن الجامعي الفاسي (1087-1144هـ/ 1677-1734م)، جامعة عبد المالك السعدي، كلية الآداب والعلوم الإنسانية، تطوان 2012.

(14) ابن مريم، المصدر السابق، ص ص 231-232.

(15) ابن صعد، محمد الأنصاري التلمساني، روضة النسرين في التعريف بالأشياخ الأربعة المتأخرين، (مراجعة وتحقيق: يحي بوعزيز)، طبعة خاصة، 2009، ص ص35-47.

(16) ينظر: ابن سحنون الراشدي، المصدر السابق، ص ص 461-463. أيضا: بنو شقران في دائرة المعرف الإسلامية، ط2، بريل، ج4، ص 510. حول حياة الشيخ سيدي محمد الهواري ينظر: ابن صعد، ص ص35-47.

ابن مريم، المصدر السابق، ص ص 228-236 - الثغر الجماني، ص ص 461-472– دليل الحيران، ص ص60-61. – المازاري، ج1، ص ص 70-76.

(17) لا شك أن مكونات شخصية الهواري العقدية تبدو من خلال رسالة: عقيدة الإمام أبي عبد الله محمد بن عمر الهواري نشرها: نزار حمادي، بدون تاريخ، 28 ص.

(18) عبد الحميد حاجيات،" سيدي محمد الهواري، شخصيته وتصوفه"، مجلة الثقافة، الجزائر، وزارة الثقافة والسياحة، العدد 88، جويلية- أوت 1985، ص ص 77-88.

(19)Walsin, Esterhazy, op.cit., pp.164-229.

[20]Walsin, Esterhazy, Notice historique sur le Maghzen d'Oran, Oran 1849.

[21] وُلد الشّيخ أحمد بن يوسف الراشدي الملياني سنة 840هـ - 1437م، وقيل سنة 836هـ، في دامود أحد قصور توات،أخذ عن علماء تلمسان ووهران، ثمّ انتقل إلى بجاية حيث تتلمذ على الشّيخ أحمد زروق، وأخذ عنه عهد الطّريقة الشاذلية، وسلك على يديه. تذكر بعض المصادر أنّه ساح في الأرض لمدّة تزيد عن 15 سنة بفاس وتلمسان وتاهرت وفجيج، ثمّ انتقل إلى الزاب وبلاد الجريد والقيروان وطرابلس والإسكندرية والقاهرة وجدّة، وحجّ وأقام بمكّة، ومنها انتقل إلى المدينة المنورة حيث أقام هناك سنة كاملة.وبعد هذه الرحلة العلمية والرّوحية عاد إلى بلاده ينشر العلم والطريقة معًا، فأسّس زاويته بـ«رأس الماء" بوادي الشلف، درّس بها مختلف العلوم الشّرعية، وكوّن فيها المريدين، وسرعان ما عرف شهرة واسعة في المنطقة والمناطق المجاورة، وعرفت طريقته "اليوسفية" شهرة وسمعة كبيرتين، في مختلف أرجاء المغرب الإسلامي، وعمّ نفوذه الصّحراء الجزائرية والمغرب الأقصى، وكوّن عدد من أتباعه جماعة تسمّى بـ"الشرّاقة" أو "اليوسفية"توفي الشّيخ بالقرب من مدينة مليانة في سنة 931هـ-1524م، ودفنه ابنه محمد بن مرزوق في مدينة مليانة. يعتبر أحمد بن يوسف الملياني من الشخصيات الصوفية البارزة في القرن السادس عشر الميلادي في الجزائر، واشتهر بمواقفه السياسية الجريئة التي جعلته يعارض تحالف بقايا الزيانيين مع الإسبان، مفضلا الوقوف إلى جنب الأتراك العثمانيين .للمزيد يراجع: بو القاسم محمد، الحفناوي، تعريف الخلف برجال السلف، ط1، دمشق، مؤسسة الرسالة،1982، ص 103.

[22] حول بعض البطون المتعاونة مع الإسبان أثناء تواجدهم بوهران والمرسى الكبير يراجع: حنيفي، هلايلي،" عملاء وجواسيس الإسبان في بايليك الغرب على ضوء بهجة الناظر"، مجلة الحوار الفكري، العدد7، ذو القعدة 1426هـ/ديسمبر 2005م، جامعة منتوري قسنطينة، ص ص 143-146.

[23] الجزائر كان قدرها أن تصبح خاضعة للوجود العثماني التركي ثم الاستعمار الفرنسيحسب التحليل الأنثروبولوجي الاستعماري.

(24) الولي سيدي أحمد الكبير الأندلسي أيد خير الدين بربروسة، وأصبح محل تقدير من قبل سكان البليدة. كان لقائه بخير الدين سنة 1535، وطالب ببناء المدينة وإسكان اللاجئين الموريسكيين بها. وبذلك أصبحت البليدة عاصمة المتيجة. وظلت المدينة قاعدة عسكرية مهمة للعثمانيين أثناء وجودهم بالجزائر، ودعا بهذا الدعاء سيدي أحمد الراشدي المليانى (1437-1524)، وقد بنى له محمد الكبير باي وهران ضريح وزاوية، ينظر:

Lecolonel.C,Trumelet,Blida récit selon légende, la tradition et l'histoire, Alger, Adolphe Jourdan,1887. pp.521-547.

(25) تقلد كلوزيل مهام القائد العام للقوات الفرنسية بالجزائر مرتين الأولى ما بين 1830-1831، والثانية ما بين 1834-1837.

(26) يعتبر بريزيني (1814-1869) أحد الشخصيات التي حررت بيان الجيش الفرنسي عشية الاحتلال الفرنسي للجزائر.

(27) نشر قورقوس 26 دراسة في المجلة الإفريقية (Revue Africaine)، في 6 مجالات أهمها التاريخ والمنوغرافيات.

(28)Berbrugger (A.), « M. A. Gorguos», In, RA n°11, 1867, pp.90-92.

(29)Gorguos, Auguste,op.cit,pp.460-463.

(30)Fey,Henri Léon,op.Cit, pp.51-52.

(31) بلقاسم بن سديرة (1845-1901) تجنس سنة 1866، عمل أستاذ اللغة العربية والقانون بمدرسة الجزائر الرسمية ما بين (1869-1880. ساهم في إنجاز معاجم اللغتين العربية والفرنسية.

(32) مستشرق فرنسي (1872-1956)، مختص في اللغتين العربية والأمازيغية اهتم بالتاريخ والفن الإسلامي درس بمدرسة تلمسان الرسمية.

(33) دخل ألفريد بيل (1873-1945) الجزائر سنة 1891، مستعرب من الطراز الأول اهتم بالتاريخ الديني والأنثروبولوجيا

والمنوغرافيات. درس بمدرسة تلمسان الرسمية ثم أصبح مديرا لها منذ 1905. تقلد مهام مدير مدرسة تلمسانمدة 30 سنة. ينظر:

Émile,Janier, « Alfred Bel (1873-1945) »,In, Bulletin de la Société de Géographie et d'Archéologie d'Oran, vol. 65, 1944, p. 66-76.

(34)Destaing, Léon Edmond, op.cit., p.295.

(35) يا سيدي الهواري قصدتك وقصدت بلادك ترزقني من الكرامات المسلمة باش نفوز على إلا يبغضنا ويبغض أولادنا ترزقهم الهم. يا سيدي الهواري أنت ولي، أنا عبد الله أكرمني بهذه الحاجة بجاه النبي الشفيع.

يا سيدي الهواري أنا جيت لعندك باش تفتح علينا وتفرح أحبابنا، يا سيدي الهواري أنت معجزة عليك أوراقك غالية جيتك باش تفرحني وتهنيني من عذاب الدنيا وترحمني بها في الآخرة. ينظر: Destaing, Léon Edmond, op.cit., p.336

(36)Destaing, Léon Edmond, op.cit., p.338.

(37) ابن مريم، البستان، ص ص 229-230.

(38) الثغر الجماني، ص 463.

(39)Destaing, op.cit., p.426.

(40) أبو فارس عبد العزيز المتوكل من مواليد قسنطينة (1361-1434)، حكم الدولة الحفصية فيما بين عامي (1394-1434)، تمكن من احتلال تلمسان عاصمة الزيانيين سنة 1424، ونصب عليها حاكما مواليا للحفصيين. وكان هذا في عهد السلطان الزياني أبو العباس أحمد بن أبي حمو.

(41)Destaing, op.Cit., p.412.

(42)Ibid, p.437.

(43)Piesse, Louis, Itinéraire de l'Algérie, de Tunisie de Tanger, .Description matérielle, Paris, Hachette, 1882

(44) قدم الكتاب معلومات غزيرة عن تاريخ وهران منذ القديم، وركز على الاحتلال الإسباني لها وعلاقة سيدي محمد الهواري بذلك. أعطى صورة لنظام الحكم العثماني للمنطقة بـ 33 باي إلى غاية الاحتلال الفرنسي، الذي دخل وهران يوم 4 جانفي 1831 ونصب الجنرال فودوس (Faudoas) لإدارة وهران في 17 أوت 1831. كما أشار إلى أهم الحكام العسكريين لإقليم وهران ما بين (1831-1861): Boyer- Esterhazy- Desmichels- Trézel- De Lamoricière- Cavaignac-Pélissier- Deligny. Piesse, Louis, op.cit., pp.182-329

(45) احتل بنو مرين تلمسان الزيانية مدة 12 سنة (1337-1348) ثم حررت في عهد عثمان الثاني (1348-1352)، ثم أعاد المرينيون احتلالها (1352-1358)، فأعاد أبو حمو موسى الثاني ملك بني زيان (1359-1389)، ثم عاد المرينيون من جديد (1388-1392). أما الحفصيون فقد احتلوا تلمسان وأجلسوا سلاطين تابعين لهم، في عهدي أبو فارس (1394-1434)، وعثمان (1435-1488). وما تجدر الإشارة إليه، أن مؤسس الدولة يغمراسن خاض 72 غزوة ضد جيرانه لتقوية أركان دولته: يراجع: عبد الفتاح مقلد، الغنيمي، موسوعة تاريخ المغرب العربي، القاهرة،1994، ج3، ص 116.

لقد لخص الوزان وضع الدولة الزيانية بقوله:"... وقد استقر الملك في بني زيان ثلاثمائة سنة، غير أن جيرانهم اضطهدوا من قبل ملوك فاس الذين دخلوا تلمسان عشر مرات، وكان مصير ملوك بني زيان حينئذ إما القتل، أو الأسر، أو الفرار عند جيرانهم الأعراب، وتعرضوا أحيانا أخرى إلى الطرد من قبل ملوك تونس الحفصيين، واستطاعوا أن يستمتعوا بها مدة 130 سنة.." ينظر: الوزان، الحسن بن محمد، وصف إفريقيا (ترجمة: محمد حجي ومحمد الأخضر)، ط2، بيروت، دار الغرب الإسلامي، 1983م.ج1، ص 380.

(46) خصص بياس لإقليم وهران في كتابه مسار الرحلة أكثر من مائتين صفحة تناول تاريخ وحضارة مدنه ومناطقه: Ibid,pp.182-329.

(47)Basset, René, « Œuvre scientifique de la France en Algérie et nord Afrique »,In, Journal asiatique, T20,1920.pp.89-96.

(48)Bel, Alfred, « René Basset », In, R.A, n°65,1924, pp.12-19.

(49) قام باصيه بفهرسة مخطوطات زاوية الهامل ببوسعادة بعد ما كلفه الجنرال كولي(Collet-Meygret) سنة 1896، وأنجز العمل في فهرسة أحصى فيها مخطوطاتها بـ 53 في 99 مجلد، تهتم بميادين المعرفة التالية:(الفقه-تفسير القرآن-التاريخ-التصوف-وعلومواللغة.)

(50) أنجب باصيه ولدين هما من رواد الاستشراق الفرنسي في الجزائر: هنري (1892-1926) وأندري (1895-1956)، أما ابنته فتزوجت من رائد الدراسات التركية العثمانية المستعرب الفرنسي جون ديني (Jean Deny) (1879-1963)، ومدير معهد الدراسات الشرقية الحية بباريس ما بين 1937-1948.

(51)Walsin, Esterhazy, op.cit., pp.164-229.

[52]René, Basset, « Les dictons satiriques attribués à Sidi Ahmed Ben Yousef », In, Journal asiatique, Septembre-Octobre, T.XVI, pp.203-297.

[53] أصدر أبو حمو الثالث(923-934هـ/1516-1528م) مرسوم يقضي بإعدام الولي أحمد بن يوسف فأدخل بموجبها السجن، ولكن حسب الأسطورة اختفى فجأة. فلقب بالسجين المختفي فذهب إليه السلطان، وقال له: " اذهب لقد سرحتك". وكانت دعوته أن هرب واستنجد سكان تلمسان بعروج بربروسة، وبعد استشهاد عروج لجأ إلى مزغران وربط علاقات حسنة مع أخيه خير الدين مؤسس أيالة الجزائر.

للمزيد حول الموضوع راجع: محمد، دراج، الدخول العثماني إلى الجزائر ودور الإخوة بربروسة 1512-1543، ط2، الجزائر، شركة الأصالة،1434هـ/2013م، ص 95. Basset, op.cit., pp220.-223.

[54]Basset, op.cit., pp228. -297.

[55] في كتاب دوما، جاء التعبير على النحو التالي: "وهران الفاسدة، بعنا لقوم الكافرة، حتى يوم القيامة "،وأيضا: وهران للبيع والشرا.. لا تقارنها ببلاد أخر.. ليدخلها فقير يصبع غني... وهران للبيع والشرا.. لا تقيسها ببلاد... من دخولها فقير.. يولي غني. ينظر:

Le Général Eugène, Dumas, la vie arabe et la société musulmane, Paris, la librairie nouvelle, 1869, pp.227-228.

[56]ARNAUD, « Voyages extraordinaires et nouvelles agréables par Mohammed Abou Bas ben Ahmed ben Abd el-Kader en-Nasri. Histoire de l'Afrique septentrionale », *In,* RA, *n°*24, 1880, pp.133-139.

(57)Doutté, Edmond, « L'œuvre scientifique de l'école des Lettres d'Alger », In, R.A, n°49, 1905, p.440.

(58)Doutté, E, Note sur l'Islam Maghrébin –marabouts, Paris, Ernest leroux,1900

كما نشر أعماله في مجلة تاريخ الأديان ما بين 1899-1900، وكان يعاضده في أبحاثة جزائريان هما: علال عبدي (ت 1908)، بومدين بن زيان. ينظر:

Messaoudi, Alain, les arabisants et la France coloniale, collections : Espace, Temps, Lyon, 2015, pp.154-155.

(59) قدم دوتي إحصائيات موثقة عن الوظيف الديني في الجزائر لسنة 1899، والذي شمل 174 مؤسسة دينية، توظف 573 في العمالات الجزائرية الثلاث، للمزيد يراجع:

Doutté, dE, L'Islam Algérien en l'an 1900, Alger-Mustapha,1900, pp.120-128.

(60)Doutté, E, Notes sur l'Islam Maghrébin -marabouts, Paris, Ernest leroux,1900, p.60.

(61) تم ترجمت أعمال دوتي من طرف الباحث المغربي: محمد ناجي، عمر، الصلحاء: مدونات الإسلام المغاربي خلال القرن التاسع عشر، المغرب: افريقيا الشرق، 2014، ص ص 17-26.

(62) من أشهر كتبه:

- Les Français dans le désert, journal d'une expédition aux limites du Sahara algérien (1863).Boufarik et son marché (1869).
-Études sur les régions sahariennes. Histoire de l'insurrection dans le sud de la province d'Alger en 1864 (2 volumes, 1879).
-Le Corps des interprètes militaires, ce qu'il a été, ce qu'il est, ce qu'il doit être (1881).

-Les Saints de l'Islam. Les saints du Tell : légendes hagiologiques et croyances algériennes (1881).

-Un drame pour un cheveu, souvenirs intimes de la vie militaire algérienne d'autrefois (3 volumes, 1881-1884)

-Blida, récits selon la légende, la tradition et l'histoire (2 volumes, 1887).

-Le Général Yusuf, (2 volumes, 1890).

(63)Le Colonnel Corneille, Trumelet, L'Algérie légendaire en pèlerinage çà et là aux tombeaux, principaux thaumaturges de l'islam, tell, Sahara, Alger, Adolphe, Jourdan,1892, pp454-464.

(64) ابن القنفذ، أبو العباس القسنطيني، أنس الفقير وعز الحقير (نشره وصححه: محمد الفاسي وأدولف فور)، الرباط: منشورات كلية الآداب، المركز الجامعي للبحث، 1965، ص 4.

(65) الونشريسي، أبو العباس أحمد بن يحيى، المغرب والجامع المعرب عن فتاوى علماء افريقية والأندلس والمغرب (أخرجه جماعة من الفقهاء تحت إشراف محمد حجي)، بيروت، دار الغرب الإسلامي، 1981، ج2، ص 395.

(66) سورة الأنفال، الآية: 32-33.